الرواية بطرفين محددين : الرمز والعلاقات التي يؤشر لها . فتبقى العلاقات الحقيقية ، التحول غائبة . هذا ما تشير اليه « ما تبقى لكم » ، حين تقييم معادلة تجريدية ، لا تصل الى عينيتها الا في لحظة اللقاء القصيرة بين حامد والاسرائيلي في الصحراء . هنا يجرد كنفاني العلاقات ويصل رأسا الى النتائج في بناء روائي مذهل في قدرته على اختصار الحركة وتحويلها الى مجرد اشارات . في « ما تبقى لكم » تبدأ مسيرة الالتحام بالارض — القتال . وتصبح العلاقات الاجتماعية من طبيعة تساؤلية . التساؤل حول الخط الذي يصل بين « المؤجل » والفعل . تتوتر اللغة وتختلط عناصرها في محاولة للتغلب على انحلال مفصل العلاقات داخل الرمز الكبير في الرواية السابقة . لكننا نعود مع « عائد الى حيفا » الى اسقاطية سياسية لا مبرر لها . تتخلى عن الرمز وعن العلاقات الاجتماعية ، لتقيم ذروة تقليدية تتجمع عندها الارادية ، وكأنها الجواب المباشر ، على هزيمة حزيران . بعد « عائد الى حيفا » يرتفع صوت المخيم . انها مرحلة المخيم . هنا يعود الفلاح الفلسطيني من ذاكرته الى واقعه . فالعودة الى الارض ليست سوى المعادل الفعلي لأطروحة الموت في سبيل التغيير . هكذا يتغير الفلسطيني داخل موته . نلمح في « أم سعد » محاولات هذا التغير وقد ارتسمت على ملامح شبكة من العلاقات المبسطة والواضحة . لكن ام سعد : الام الواقعية ، تحيل المخيم من علاقاته العينية الى رمز . ونعود الى التساؤل من جديد لماذا لم يتكلم الفلسطينيون الثلاثة داخل الخزان ؟

عندما وضع كنفاني أبطاله الثلاثة في الخزان ، فان السياق كان يؤشر الى خيار الموت . الهرب موت آخر . أو هو شكل آخر لموت الفلسطيني . لذلك فعوض أن تتسع حدود المخيم ، ضاقت الى خزان صهريج يلتهب في حرارة آب الخانقة . هذا الخيار ، الهرب — الموت ، رسم للشخصيات الثلاث نهايتها المنطقية . لذلك نتركها في الداخل لنعاين موتها من خارجه . في علاقة أبي الخيزران برجال الحدود . هذه العلاقة المقررة هي التي تضع المعاني النهائية للهرب الفلسطيني . فالسائق لا يستطيع ان يقرر ، ارادته مسلوبة بعلاقته برجال الحدود . لذلك نبقى معه في زمن الحدث ، ونتخلى عن زمن السكون . زمن الحدث هو زمن العلاقات الخارجية الذي يحيل الدقائق الى مجرد لحظات في المحاولة اليائسة التي يبذلها السائق لانقاذ ضحاياه . نحن هنا ، في زمن الفعل الذي لن ينجح لكنه فعل يتحرك ، يحاول ، يفشل ثم يطلق صيحة الانذار . أما زمن السكون ، زمن الرجال الثلاثة الذين يحترقون داخل الآتون ، فانه زمن ساكن ، زمن الانتظار ، لذلك فهو زمن لا أهمية له في حركة الواقع (القصة) . فمجرد القبول بتسليم الزمام الى ابن الخيزران ، يعني القبول بالغاء زمن الفعل . هكذا يضعنا كنفاني ، في الخارج مع حركة ارتطام الواقع بالمأساة . فنلهث وراء محاولة السائق العبور في الوقت المحدد ، ثم حين يفشل ، تستسلم أجساد الفلسطينيين الى الموت ، وتستسلم الصحراء لصرخات المؤلف وهو يدعو الى دق الجدار قبل الموت ، الى البدء بتلمس الطريق ، الى التخلي عن لهب الخزان الى الصحراء حيث نقابل العدو وجها لوجه على الاقل كما فعل حامد .

ان مكوث الرواية في الزمن الخارجي ، زمن الحدث ، يلغي جدل السؤال الذي يطرحه المؤلف . فالتساؤل الذي تحمله الصحراء يبقى من خارج معاناة الرجال الثلاثة داخل الخزان ، أو على الاقل ، فان علاقتهم بالسؤال تبقى غامضة وغير واضحة المعالم . لكن لماذا بقيت الرواية في زمن الحركة ، ولم تحاول ان ترصد العلاقات الداخلية التي قادت أجيال الفلسطينيين الثلاثة الى الموت ؟